قداس أحد الفصح

عند السادسة من صباح الأحد الأول من أيار 2005 ترأس سيادة متروبوليت بيـروت وتوابعها المطران الياس عوده خدمة الهجمة وقداس الفصح في كنيسة القديس نيقولاوس فـي الأشرفية في حضور حشد من المؤمنين. بعد الإنجيل المقدس ألقى سيادته العظة التالية:

«المسيح قام ـ حقاً قام، فلنسجد لقيامته ذات الثلاثة الأيام. المـسيح قـام مـن بـين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور.

يا أحبائي،

اليوم يوم الخليقة الجديدة. في البدء خُلق الإنسان إلهياً وسكن في المجد الإلهي. لكنـه شاء مجده وانساق خلفه فأضاع المجد الأول الذي يبقيه حياً وتُرك مع مجده الثاني الذي يميته. هذا المجد الأرضي أضاع الإنسان، أضلّه وأزاغ عقله وقلبه والضمير فصار يتلفت فـي كـل مكان وصوب ولا يستقر.

يسوع المسيح ابن الله الحي المتجسد أراد أن يعيد الإنسان إلى المجد الأول، لأن محبة الله لا تتأثر بضعفات البشر وعقوقهم. محبة الله تتأثر بحرية الإنسان. محبة الله دائمةٌ ومستقرةٌ لكن الله يحترم الإنسان خليقتَه، ويحترم حريته، لذلك أعطاه أن يقول نعم نعم ولا لا. أعطاه أن يقبل وأن يرفض، لكنه لم ينس الإنسان المرتبطَ به أبداً فتنازل من عليائـه إليـه ليتحـد بـه متواضعاً، ليرفع الإنسان إلى علياء السماء.

اليوم نعيد ليومٍ جديد، يومٍ يختلف عن سائر الأيام، يومٍ فريد لأن فيه صار الإنسان في المسيح القائم من بين الأموات إنساناً جديداً، إنساناً قادراً أن يقهر الموت والضعفات وأن يكون قوياً لا جباناً. في المسيح يسوع أصبح الإنسان إلهاً متحكماً بالحق في كل شيء.

الإنسان البازغ اليوم من القبر، الإنسان الذي اتخذه ابن الله إليه هو إنسان جديد. اليوم، الإنسان الجديد قد أُعطي لنا لنكون فيه، ليصبح كلٌ منا إنساناً جديداً يختلف عن الإنسان الـذي يتحكم به الشر ويستميله الغش والضلال. وإذا ما اتحد الإنسان بالله يستلذ الحق والخير وكل ما هو إلهي.

اليوم مختلفٌ عن سائر الأيام لأن الإنسان يرجع فيه إلى الله ليكون في بهائـه وفـي جماله، بل في نوره الأبدي. اليوم يصبح الإنسان نوراً أو بالأحرى يستعيد النور الحقيقي فيه.

«في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله» (يو 1:1). الكلمـة لا ينفصل عن الله الآب. إنه بهاء مجده ورسم صورته. الكلمة حكمةُ الله وقوته وقدرته. نحـن لا

نعبد أصناماً. نحن نؤمن أن الله الذي نعبده هو إله حي أي انه متحرك في ذاته ويعبر عن ذاته بالكلمة الإلهي الذي تجسد لكي يستطيع كل إنسان أن يلمس مجد الله في يسوع المسيح. نحـن البشر لا نستطيع بأي شكل من الأشكال أن ندخل في عمـق الله إلا إذا اختطفنـا الله، لكننـا بالمسيح يسوع نلمس الألوهة أي نلمس نورها وضياءها وعظمتها وحكمتهـا، ومـن يجعلنـا نقترب من الألوهة وندركها هو الروح القدس الذي يسكن فينا ويعرفنا بنفسه، يعرفنا بالإله.

اليوم نعيد إذاً للكلمة الخالق، للتعبير الذي يخلق. عندما تتكلّم تنوجد أمامي. أنا أعرفك بمقدار ما تتكلّم وبمقدار ما تكون كلمتك صادقة. الكلمة تخلق، توجِد. كلمة الله كان منذ البدء. العالم كله خُلق به. العالم خُلق بكلمة الله وبحكمة الله وقوته. هذا الإله العظيم الذي تجسد وأراد أن يعيد العالم المشتت، المبعثر، المفتت إلى وحدة. الكلمة الصادقة وحدها تجمع. الكذب يفرق. الكلمة غير الصادقة تفرق لأنها لا تدلّك على الحقيقة، والحقيقة واحدة إن سعينا إليها جميعنـا نصبح واحداً. الحق وحده يوحدنا والنعمة المعطاة لنا من الله تدفعنا إلى الحق، والحق واحد.

الله «صار جسداً وحل بيننا» (يو 1:14)، سكن فينا، في الإنسان، وكأنه يقول لنا أتيت إليكم فقيراً، ضعيفاً، ولدت في مغارة من أبوين لا مجداً أرضياً لهما، لكـي أتحـد بالإنـسان وأسمح لكل إنسان أن يتحد بي وأكون له فخراً وكرامة. ماذا تريدون مني بعد؟ ماذا لم أفعلـه لكم؟ شفيتُ مرضاكم، أقمتُ أمواتكم، أشبعتُ الآلاف منكم، مت من أجلكم. كـان بإمكـاني أن أستعين بربوات الملائكة ورؤساء الملائكة لكنني أردتُ أن أكون لكم قدوة لتعرفوا أن الله وحده قادر على مساعدتكم. فمهما جمعتم من الأموال، ومهما كبر اسمكم وعلا مركزكم، وكائنة من كانت الجماعة الداعمة لكم، هذه كلها إلى الموت والزوال. وحده الله يبقى إلى الأبد. ويـسوع ابن الله قد أفرغ ذاته بالكلية ليقول لنا ان المجد ينزل من فوق. هناك مجد واحد لا آخر سواه، هو النازل من فوق. المسيح الإله صلب ومات من أجلنا لكي يميت الإنـسان الـشرير فينـا، إنساننا العتيق.معظم الناس يفضلون ملذات الدنيا وشهواتها على الله. وهناك قلة قليلـة تجاهـد وتصارع لتؤكد لنفسها وللآخرين بأن القوة الوحيدة هي القوة الإلهية.

الله أتى إلينا إنساناً جديداً ناصعاً لا آثار للخطيئة فيه، أي لا أثـر للجـوع والمـرض والألم والبكاء والموت فيما بعد. أتانا بجسد جديد، وكل مـن أراد أن يتحـد بـه، أن يكـون بالمسيح، يشع نوره ويجتمع حوله العديدون. قال قديس روسي إذا سكنك الروح القدس تجتمع حولك الآلاف. هذه صورة عن الرب يسوع الذي أتى لا ليفرق بل ليجمع جميـع المتفـرقين والضالين والمشتتين إلى واحد. ونحن مدعوون إلى مثل هذا إذا كنا نريد أن نكـون جماعـة واحدة، عائلة واحدة، كنيسة واحدة جامعة، وأقصد هنا الكنيسة بمعناها الواسع حيث يشاء كـل إنسان يحب الله أن يكون تحت جناحيه. إذا كنا حقاً مؤمنين بالله، إذا كان كل إنسان، مسلماً أو مسيحياً، من المؤمنين حقاً بالله، لا يستطيع إلا أن ينبهر بمجد الله في وجه أخيه الإنـسان. إذا

كنتُ أنا أحب الله حقاً وأعبده وإذا كنتَ أنتَ تحب الله فعلاً وتعبده، من المستحيل ألاّ نصبح واحداً. على الأقل الإله الذي أعبده أنا يكلّمني بلغة المحبة. فأي مسيحي يقتل أو يبغض أو يضمر الحقد في قلبه هو غريب عن الله. قد يقول قائل ان الجندي يقتل. إذا جاءني جندي ذاهب إلى الحرب أصلّي من أجله قائلاً له إني أبارك طاعتك لكنني أترك لضميرك الفعل لأننا لا نبارك القتل. عندما استل واحد ممن كانوا مع يسوع قبل صلبه، سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة وقطع أذنه قال له يسوع «رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (متى 26: 52). وقد علّمنا يسوع أيضاً «من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً» (متى 5: 39). يسوع هو القدوة في هذا المجال. كان بإمكانه أن يقيم الدنيا ويقعدها لكنه أراد أن يؤكد السلام في العالم ويثبته.

اليوم نحن مدعوون أن نكون واحداً مع الجميع، أما الشرير فنسأل الله أن يشفيه من شره، لكننا نحمل الإنسان كلّه في قلوبنا ونصلّي من أجله.

ألا تتساءلون يا أحبة لماذا نحن مفككون اليوم أكثر من أي وقت مضى؟ ولا تغرنكم المظاهر. ألا تلاحظون كيف تتغير المواقف؟ قلت في عظة سابقة انني أخاف أن يكون السياسي ممثلاً رهيباً، تسيره مصلحته وتنقله من جهة إلى أخرى. مؤسفٌ اننا نرى كل واحد يغني على ليلاه. أنا لا أدين أحداً إنما يحق لي كمواطن أن ألاحظ. يحدثوننا عن معارضة وموالاة. هل تلاحظون جماعات متراصة؟ كل يوم نسمع رأياً مخالفاً أو واحداً يبرر الآخر أو أحدهم يغطي أمراً حصل ولا يريد التعبير عنه. أنا لا أرى وحدةً في هذا البلد بل تفككاً. لا أريد تيئيس الناس لكنني أشعر بالتفكك والانهيار في الأخلاق السياسية، فيما شعبنا متعطش لسماع الكلمة الصادقة ليتحد. شعبنا محتاج لمن يؤمن له حقه وكرامته ويحترم انسانيته وعقله في ظل نظام حر ديمقراطي مستقل. الشاعر الإنكليزي العظيم شكسبير قال كلمات كلمات. لو عاش في أيامنا في لبنان لكان انتحر لأنه ما كان ليظن ان كلامه ينطبق بهذا القدر علينا. منذ مدة رأينا في أحد البرامج التلفزيونية كيف أن مسؤولاًيعتمر كل يوم قبعة مختلفة. وسمعنا ما كان يقوله منذ مدة وما يقوله اليوم. هل بإمكانك أن تؤسس بيتاً على رمال متحركة؟ الآن نسمعهم يقولون «الشباب سبقونا وهم أفضل منا». لا تصدقوا أن أحدهم سيتخلى عن كرسيه أو عن زعامته. فلا يسخروا منا لأن كلامهم يكون كالرماد يذر في العيون.

إذا كنا حقاً نريد شعباً يتمتع بحقوقه وكرامته في ظل قوانين ترعى الحقوق والكرامات وتحميها يجب أن ندرك ان الحقوق والكرامات لا تُصان إلا في وجود دولة قوية مستقلة حرة صادقة تحترم شعبها وتحافظ عليه. في عظة سابقة ذكرت لكم انه يقال الكذب ملح الرجال. إذا كان مثل هذا الملح سيحافظ على طبخة بلدنا فأي بلد سيكون عندنا! نحن نريد دولة تحافظ على كرامة الإنسان وعلى حياته وحقه. قضيتنا هي قضية الحرية وقد جاهدنا من أجلها

وسنجاهد لأن الدول ليست كالأطفال الأبرياء. لا أعلم ماذا يخبئون لنا، لمستقبلنا. نحن دولـة صغيرة وضعيفة لذلك علينا أن نتحد وأن نحافظ على كرامة بعضنا وعلى حق بعضنا البعض.

منذ 14 آذار فرحنا برؤية شبابنا يرفعون العلم اللبناني، وأنا تكلّمت مراراً ومنذ زمن على أهمية علم الوطن، لذلك أتمنى أن لا أرى أعلام الأحزاب. رمز لبنان هو علم لبنان ومن يرفع علم حزبه ولا يرفع علم الوطن لا ينتمي إلى البلد بل إلى حزبه. ثم دعوني ألفت النظـر إلى أن الصليب لا يمكن أن يكون خنجراً. الصليب ليس أداة قتل بل أداة حياة. المسيح مـات على الصليب وأنا أموت عليه وكل إنسان مؤمن بالمسيح يسوع مستعد أن يموت عليه إنما لا يقتلُ به.

ما هي الوطنية؟ إنها الإنتماء إلى الأرض والإنسان والتاريخ وأهم هذه الإنـسان. مـا نفع الأرض إذا كنا نتقاتل عليها وما نفع التاريخ إذا كنا نتكاره ونتحارب؟ إذا أراد الإنسان أن يتفاخر فليفتخر بصدقه وأمانته ومحبته ورعايته لأخيه. ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كلّـه وخسر نفسه؟ ونفسك هي أخوك، هي الآخر. وطن الإنسان هو الآخر، هو الإنسان كائناً مـن كان. أخي هو موطني، وقد أرسلني ربي إليه لأصير معه واحداً. الرب لم يطلب منا أن نكون قبائل وعشائر ولنضع الحدود فيما بيننا في بلد واحد. وطني هو الآخر والآخر هو وطـن الله. «والكلمة صار جسداً وحلّ فينا». هذا ما سمعناه في إنجيل اليوم. إذاً صرنا جميعنا واحداً به. أعظم وصيتين في الناموس والأنبياء وفي كل الكتب ان أحبب الرب إلهك من كل قلبك وفكرك وذهنك وقدرتك وأحبب قريبك كنفسك. وقد ساوى الرب بين محبة الله ومحبة القريب. المتوحد مع الرب في البرية، يقصد البرية للتوحد مع الله من أجل أن تصفى رؤيتـه ليـرى الإنـسان بشكل أفضل وأنقى. أما إذا أراد التوحد من أجل العيش وحيداً فهو أناني ولا يحـب النـاس. طيلة الأسبوع العظيم كانت الوصية الأولى والأهم: أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنـا، أي كما صلبت من أجلكم. هذه هي الوصية العظمى التي تركها لنا المسيح. إن كنا نـؤمن بـالله حقاً ونطيعه، مشيئته أن نكون واحداً فيه ويكون الصليب غايتنا. محبتي لك هي غايتي إن كنت أنا مؤمناً وعاملاً بوصية الله.

ما الذي يجمعنا في هذا البلد؟ سمعنا خطابات وكلاماً كثيراً، ويبقـى الـسؤال: مـاذا يوحدنا؟ ألا نرى كل مسؤول يهتم لما له؟ هل يهتم أحد للوطن؟ هل يتكلّم أحد عن الحفاظ على الوطن ونموه إلى الأفضل؟ هل من خطة؟ هل من مشروع؟ أين الرؤية؟ لا خطـة ولا رؤيـة لأن الجميع مشغولون بالانتخابات ولا وقت لديهم. أما التحالفات، معارضة وموالاة، فلم نعـد نميزها أو نستطيع اللحاق بالمنتمين إليها لأنهم يغيرون مساراتهم ويستعملون لغات مختلفة. لا لغة واحدة تجمعهم. ينتمي واحدهم إلى حزب ثم إلىالمعارضة وبعدها إلىالموالاة، والمواطن في ضياع. لذلك لا أعتقد أن التحالفات صادقة بل هي مظهر من مظاهر السياسة غير الصادقة

ولا تلتزم الحق والصدق في التعامل للوصول إلى الغايات الكبرى. أظن أن التحالفات تـتحكم بها «الأنا».

كلكم تتذكرون الحديث عن مرض الطائفية وبعضهم يدعي البطولة في محاربـة آفـة الطائفية وينعتها بشتى النعوت، وهم أنفسهم ينفثون سمومها كلما خفت الحديث عنها.

أنا من هنا أعلن أنني أتمنى اعتماد الكفاءة، الكفاءة المصحوبة بالصدق ونظافة الكـف وبالوطنية اولاً. نحن لا نريد مراكز ونتمنى أن يضعوا الأكفاء في المراكز إلى أيـة طائفـة انتموا، لكنني عندما أسمع من يشتم الطائفية كل يوم وعندما يـأتي أوان التوظيـف لا يتـرك مجالاً لغير طائفته، إذا جاءني أحد أبنائي يطالب بحقه أقول له: يا ابني أنـت كالغـارق فـي الوحل، لا بأس إن اتسخت يداي بالوحل، المهم أن أنتشلك. وأغرق يدي بوحل الطائفية علّهـم يضعونه في مركز هو من حقه في ظل هذا النظام الطائفي. مـشكلتنا ليـست الطائفيـة بـل التحاصص. أنظروا الشركات الخاصة هل لديها مشكلة في التوظيف وفي طائفـة موظفيهـا؟ ذاك انها لا تعتمد التوظيف بحسب الطائفة بل بحسب الكفاءة والمقدرة والعطاء. المصيبة فـي بلادنا أنهم عندما يتكلّمون على الطائفية لا يقصدون ما يقولون. أفعالهم تفضح نياتهم.

صلاتنا أن يرجع كل إنسان إلى الله وأن يعمل ما يطلبه الله منه. إن عملَ كـلٌ منـا مشيئة الله نصبح واحداً. لا يمكننا أن نتوحد حول أشخاص لكننا نجتمع ونتوحد حـول كلمـة حق. إن لم توحدنا الكلمة الحق فلا وحدة. إن لم يوحدنا الصدق فلا وحدة بيننا. إن لم توحـدنا المحبة فلا شيء يوحدنا. إذا وضع أحد إخوتي السنة أو الشيعة في مركز وكان كفوءاً وصادقاً ونظيف الكف ويحب وطنه ويخدم مواطنيه فلم لا؟ أنا لا أنظر إلى انتمائـه الطـائفي عنـدما تتوافر فيه كل الصفات اللازمة. وإذا كنا جميعنا نرى الأمور على هذا النحو فلا خوف علـى بلادنا. أما إذا كانت كل جماعة في بوسطة أو في محدلة تسحق كل مـن عـداها فالويـل لنـا ولوطننا. أنا أتمنى أن يفكر الجميع بالوطن لا بهذا الزعيم أو ذاك.

في هذا اليوم المجيد أسألكم أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحبكم الله وإذا أحببتم بعضكم بعضاً زالت الأزمات والمشاكل واستقر السلام في قلوبكم وفي وطنكم وفي العالم أجمع آمين.

المسيح قام ـ حقاً قام. فلنسجد لقيامته ذات الثلاثة الأيام. المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور».